

## التبعية لمُطلقات الغرب

### الكاتب



عبد الله بلقزيز

غالباً ما يحصل لكثيرٍ منا، باحثين وقراءً، أن يردد -في ما يكتبه ويقوله- أفكاراً وقيمًا ثقافية حديثة من غير أن يتسائل عن نسبة الحُجَّة فيها، ولا عن مدى ما يمكن أن تفيد ثقافتنا ومجتمعنا به.

أما من يشُدُّ عن القاعدة فيسائل بعض تلك القيم الفكرية، أو يتناولها بقدرٍ موسَع، فإنَّ الغالب على أكثر جمهور الحادثة في ثقافتنا أن يقف من رأيه موقفَ اشتباهٍ، أو أن يبحث في مقوله عما يمكن أن يقيم الدليل عليه أو يميط اللثام عن صلةٍ ما قد تكون مظنونةً بين رأيه ذاك وموقفِ أهل الأصالة! وقد لا يختلف أمر هذا الاشتباه، كثيراً، حتى إنْ عُلِمَ أنَّ صاحب الرأي النَّقديِّ هذا غيرُ داخلٍ في زمرة أهل الأصالة، ولا ممَّن يَدْبُون على معانٍ الغربَ خلافاً. في الأحوال جميعاً، قلماً استُقبلَ رأيُ نقيِّ عربِيًّا لمنظومات الثقافة في الغرب بما يليق به -في أقلِّ الواجب-. من إصغاءٍ وانتباه، فكيف بأنَّ يُحلَّ المَحَلُّ المناسب وأنَّ يُؤْخَذَ به أو يُسْتَأْمَنَ أو يُبْنَى عليه!

غنيٌ عن التَّنفِيل في شرح بواعث ذلك أنَّ أكثر تلك البواعث أثراً هو اليقين المقيم في وعيِّ أهل الحادثة الغربية من المثقفين العرب بأنَّ ما يأتي من الغرب مطلوبٌ ومرغوبٌ ونافعٌ ناجع؛ إنْ لم يكن كُلُّه فأكثُره، وأنَّ المشاهدة فيه والحدِّار منه -دعْكَ من نَقْدِه- مسلكٌ معرفيٌّ آيلٌ بنتائجِه إلى خدمة مقالةِ الأصالة وأصحابها. والرأيُ هذا فطيرٌ، في ما نرى، يُعْجلُه من يقولون به إعجالاً، من غير تقديمِ مقدماتٍ وتمهيدِ أصولٍ ومن غير وضعِ المائِزِ الضَّروريِّ بين أنواعِ النقود: ما ابتكى منها الهدم وتصفية الحساب وما شأنه منها أن يُحَلَّ ويُسْبَرُ ويُمحَضَ ويُضعُ الأفكار في الميزان.

ولست هنا في معرضِ الحَطَّ من قيم الغرب الثقافية وعارفه أو القدح فيها، إطلاقاً؛ فأنا - شأن آخرين مثلي - أمتاحُ منها ما استطعتُ من الامتياح، وإنما أبغى التَّبَيَّنَ على المغبة التي تأتي من وراء الانسجام في أقوافِ الصِّدقين بما يُنْتَهَلُ من المعارف، والضرَبُ صحفاً عن أداء واجب السُّؤال عن موطن الوجاهة فيها وتخرُّجِ مسائلِ المحمود وغيرِ المحمود منها.

يحتاج الفكر العربي إلى تغذية معرفية، باستمرار، من مصادر إنتاج المعرفة والأفكار؛ والثقافة الغربية واحدةٌ من أظهر تلك المصادر وأخصبها اليوم. هذه مسألة لا يختلف عليها بين من يعرفون، على التحقيق، أنّ ثقافةً ما -مهما عظم شأنها- لا تكفي نفسها ولا تملك أن تكون في غُنية عن غيرها أياً يكن رصيدها التاريخي من المعرفة، وأنّ ثراءً لها لا يكون بالورث وحده بل بالمكتسب أيضاً. ولكنّ هذا شيءٌ، والسكنون إلى اليقين التامّ وتعطيل حاسة النقد شيء آخر مختلف تماماً؛ إذ ليس من وراء المسلك هذا انتهاءً معرفيّ يتعرّز به خزين الثقافة ويَعْظُمُ أثرُها في مجتمعها؛ حيث ما كُلُّ مُنْتَهٍ مفيدٌ ومنتجٌ ومطابقٌ للواقع ومناسبٌ لل حاجات.

وإلى ذلك فإنّ تعطيل جهاز النقد في الوعي والفكر يحوّل اليقينيات المركوزة في الأذهان إلى مطلقات ميتافيزيقية أشبه بالإيمانيات القائمة على مبدأ التسلیم بالصدق القبلي للحقائق. وغنيّ عن البيان أنّ وعيّاً هذا شأنه يحكم على نفسه، لا حالة، بالتحنط ويفقد أيّ موردٍ حيوّي للبقاء فيكتفي من المعرفة بالتكلّر والاجترار، أي يتحول فعل المعرفة إلى اقتباسٍ وشرحٍ وتلخيصٍ، على نحوٍ مكررٍ ومموجٍ خالٍ من كلّ إبداع. وهذا لعمري ما لا تصدق عليه سوى تسميةٌ واحدةٌ مناسبةٌ ومطابقة هي التساؤل الثقافيّ

الأسوأ من هذه العادة الفكرية القبيحة في السكون إلى القيم الثقافية الوافدة من الغرب وحسبانها يقينيات مطلقةً لا سبيل إلى الشك فيها، أو إلى مسائلتها حتى، هو الوقوف بسلبية بالغة أمام أوضاعٍ وحوادثٍ تطرأ في عالمنا المعاصر فتستدعي من مفكّري الغرب وعلمائه ومثقفيه الجهرً بمواقف تُنْقض، جملةً، كلّ تلك المنظومة من المبادئ والقيم التي أنتجتها المعرفة الغربية الحديثة والمعاصرة!

وقد يكون في جملة ما يتخذون منه مواقف سلبية وبهلوانية كثيرةٌ من القضايا العادلة التي ناصرتها قطاعاتٍ شعبيةٍ حرّةٍ في مجتمعاتهم، ومنها قضايا خاصة بالعرب أنفسهم. ومع أنّ حالة انفضاح الوعي الغربي، في مثل هذه الامتحانات التاريخية، حالة صارخة لا تقبل تسترًا عليها من أحد، أو تلّكؤًا في إدانتها من كلّ وهي حرّ، إلا أنّ قوى التساؤل الثقافيّ من المتغيرين الانبهاريّين تقف منها موقف اللامبالاة، حتى ليكاد الظنُّ يذهب بالمرء إلى الاعتقاد بأنّهم يشاطرون مثقفي الغرب قيمهم هذه المنقلبة على القيم الحديثة! ليس من تفسير لهذه النازلة سوى أنّ انبهاريّتهم واتّباعيّتهم لا محدودتان

[abdilkeziz29@gmail.com](mailto:abdilkeziz29@gmail.com)